الفصل الثالث

الاستعارة بين أسماء الأعضاء وما يماثلها

الاستعارة بين أسماء الأعضاء وما يماثلها

كانت استعارة أسماء الأعضاء بعضها مكان بعض من أبرز مظاهر الاستعارة غير المفيدة التى عرض لها الشيخ عبد القاهر الجرجانى[١] وهى فى الوقت نفسه تعتبر مظهرا من مظاهر ثراء اللغة العربية، وسعة أفقها، واستيعابها لحياة الناس، وما خلق الله فى السموات والأرض، فقد وضع العرب للشىء الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان مراعاة للفروق والدقائق فى المعانى المدلول[٢] عليها كوضع البرثن للأسد، والحافر للدواب من الخيل، والبغال، والحمير، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس، وغير ذلك.

وتكون استعارة هذه الأعضاء بعضها مكان بعض من قبيل الاستعارة غير المفيدة، إن وضع اللفظ مكان الآخر، دون ملاحظة التشبيه على ما سلف بيانه، أما إن روعى فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له، فهى استعارة مفيدة، فمن ذلك استعارة برثن الأسد، وهو مخلبه لأصابع الإنسان، فالمستعار منه برثن الأسد، والمستعار له أصابع الإنسان جاء فى لسان العرب: «البرثن مخلب الأسد... والبراثن للسباع كلها، وهى من السباع والطير بمنزلة الأصابع من الإنسان، كما قال ساعدة بن جؤية يذكر النحل ومشتار العسل:

حتى أشب لها وطال أبابها ذو رجلة شثن البراثن جحنب[٣]

والجحنب القصير، ليس يهجوه، وإنما أراد أنه مجتمع الخلق...»[٤] ففى قول الشاعر (شثن البراثن) استعيرت البراثن لأصابع الرجل الذى يشتار العسل، فهو متين الأصابع قويها، مجتمع الخلق، كأن فيه قوة الأسد، فاستعارة البراثن لأصابع هذا الرجل

---

(١) ينظر أسرار البلاغة: ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢١ وما بعدها.

(٣) فى لسان العرب: أسد شثن البراثن -خشنها، وفى صفته ﷺ شثن الكفين والقدمين أى أنهما تميلان إلى الغلظ والقصر ورجل شثن الأصابع أى غليظها خشنها. ٤: ٢١٩٥ (شثن).

(٤) لسان العرب: ١/٢٤٣ (برث).

اعتمدت على التشبيه، فهى استعارة مفيدة، وإن بدت فى أول الأمر غير مفيدة، وضع فيها لفظ مكان لفظ آخر فحسب، لكن المقصود منها إبراز أصابع هذا الرجل فى معرض مخالب الأسد، وقوتها؛ ولذلك عدت استعارة مفيدة.

وفى عكس ذلك نجد أظافر الإنسان، وهى أقل قوة، وحدة من مخلب الأسد، وبرثنه، قد استعيرت لذلك المخلب فى قول زهير بن أبى سلمى:

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفـــاره لم تقلـــم(١)

فالمستعار منه أظفار الإنسان، والمستعار له برثن الأسد، أو مخلبه، وهذا يعتبر إضعافا لتلك الاستعارة؛ لأن فيها استعارة الأقل قوة للأقوى جاء فى لسان العرب عند الكلام عن استعارة اسم مكن الضباب لبيض الطير:

« ... وجائز فى كلام العرب أن يستعار مكن الضباب، فيجعل للطير تشبيها بذلك، كما قالوا مشافر الحبش، وإنما المشافر للإبل، وكقول زهير يصف الأسد:

لدى أسد شاكى السلاح..... ..... البيت

وإنما له المخالب »(٢).

فكما يستعار مكن الضباب لبيض الطير، ومشافر الإبل لشفاه الحبش تستعار أظافر الإنسان لمخلب الأسد، وإن كان المستعار منه فى الاستعارة الأخيرة أقل من المستعار له فى وجه الشبه.

واستعارة الأسد للممدوح فى بيت (زهير) مشهورة متداولة فى كثير من كتب البلاغة قديمها، وحديثها - فمثلا - ساقه الخطيب القزوينى فى باب الاستعارة شاهدا على اجتماع التجريد، والترشيح فى البيت فقال:

« وقد يجتمع التجريد والترشيح كما فى قول زهير:

لدى أسد شاكى السلاح مقذف لـــه لبد أظفاره لـم تقلـــم(٣)

---

(١) شاكى السلاح أى تام السلاح. ومقذف: أى يقذف به كثيرا إلى الوقائع واللبد جمع لبدة، وهى ما تلبد من شعره على منكبيه ينظر شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ٩٨، ٩٩ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦١م.

(٢) لسان العرب: ٦/٤٢٤٩ (مكن). (٣) بغية الإيضاح: ٣/١٤٢.

ولكنه لم يعين موضع التجريد، والترشيح فى البيت، وقد بين ذلك الشيخ عبد المتعال الصعيدى فقال: والاستعارة فى قوله «أسد» و«شاكى السلاح» تجريد، ومقذف تجريد إن كان بمعنى مقذف فى الحروب، وإلا فليس بتجريد، ولا ترشيح، وما بعده إلى آخر البيت ترشيح»[1].

فقوله «وما بعده إلى آخر البيت ترشيح» يدل على أنه اعتبر قول زهير: (أظفاره لم تقلم) ترشيحا لاستعارة «أسد» مع أن الأظفار -كما أوردت عن لسان العرب - مستعارة للأسد؛ لأن له المخالب، فهى من ملائمات المستعار له، وهو الرجل الشجاع، فتكون تجريدا، لا ترشيحا، وليس الشيخ الصعيدى - رحمه الله - أوحديا فى اعتبار (أظفاره) ترشيحا بل قال ذلك كثير[2].

وقد أشار الإمام فخر الدين الرازى إلى أن (أظفاره) فى البيت تجريد، لأنها لو كانت ترشيحا، لقال (زهير) لدى أسد وافى المخالب، أو دامى البراثن[3].

وتنبه «العصام» إلى أن تقليم أظفاره أشبه بالتجريد، لا بالترشيح، فقال: «وفى كون عدم التقليم ترشيحا نظر؛ لأن الأسد بعيد عن الوصف بعدم تقليم الظفر، بل هو بالتجريد أشبه؛ لأنه إنما يوصف بعدم تقليم الظفر ما من شأنه التقليم»[4].

فالذى يوصف بعدم تقليم الأظفار الإنسان؛ لأنه الذى يقلم أظفاره، فيكون هذا الوصف ملائما للمستعار له، فهو تجريد.

ومن استعارة الأعضاء بعضها مكان بعض استعارة حافر الدابة لقدم الإنسان، فالاستعارة من حيوان لإنسان المستعار منه الحافر، والمستعار له قدم الإنسان، جاء فى لسان العرب:

... والحافر من الدواب يكون للخيل والبغال، والحمير اسم كالكاهل والغارب،

---

(١) المرجع نفسه هامش: ٣/١٤٢.

(٢) ينظر - مثلا - الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان، للدكتور أحمد محمد الحجار: ١٨٩ دار الاتحاد العربى للطباعة: ١٩٧٣م.

والبيان بين عبد القاهر والسكاكى، للدكتور على البدرى: ١٩٥ ط أولى ١٩٧٧م مطبعة السعادة -القاهرة.

(٣) ينظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز: ٩٢ مطبعة الآداب ١٣١٧هـ.

(٤) الأطول: ٢/١٤٤.

والجمع حوافر... ويقولون للقدم حافرا إذا أرادوا تقبيحها، وقد استعاره الشاعر فى القدم قال جبيها الأسد يصف ضيفا طارقا أسرع إليه:

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بليل فلاحت للعيــــون النواظر[1]

فمــا رقـد الولدان حتى رأيته على البكـر يمريه بســاق وحافـر

ومعنى يمريه يستخرج ما عنده من الجرى»[2].

فقوله (ويقولون للقدم حافرا إذا أرادوا تقبيحها) يدل على أن الاستعارة فى البيت مفيدة؛ لأنها جاءت لغرض الذم لقدم ذلك الطارق فهى قائمة على أساس التشبيه.

وقد تناول الشيخ عبد القاهر استعارة الحافر للقدم فى البيت الذى تقدم ذكره، واعتبر مفيدة أيضًا فقال: «.... وأما قول مزرّد[3].

فما رقد الولدان............ .... البيت

فقد قالوا إنه أراد أن يقول بساق، وقدم، فلما لم تطاوعه القافية، وضع الحافر موضع القدم، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت ما يدل على قصده أن يحسن القول فى الضيف، وتباعده أن يكون قصد الزراية عليه، أو يحول حول الهزء به، والاحتقار له، وذلك قوله:

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا بهــذا المحيا مــن محـى وزائــر

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضَى، وأن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره، وتقاذف نواحى الأرض به، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره، واستفراغ مجهوده فى نفسه»[4].

ويضيف الشيخ عبد القاهر قائلا: «ويؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل:

---

(١) معنى شقراء: ذهب دخانها وذلك أشد لضوئها.

(٢) لسان العرب: ٢/٩٢٥ (حفر).

(٣) جاء فى هامش (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر أن البيت ليس لمزرّد إنما لجبيهاء الأشجعى، كما صرح به فى جمهرة اللغة، واسمه يزيد بن خيثمة شاعر بدوى فى الدولة الأموية: ٣٥.
وفى لسان العرب (ومزرّد بن ضرار أخو الشماخ الشاعر)، ٢/١٨٢٤ (زرد).

(٤) أسرار البلاغة: ٢٥، ٢٦.

وأشعث مسترخى العلابى طوحت به الأرض من باد عريض وحاضر[١]

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر[٢]

وبعده (فما رقد الولدان) فإذا جعله أشعث مسترخى العلابى، فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافرا ليعطيه من الصلابة، وشدة الوقع على جنب البكر حظا وافرا»[٣].

وهكذا استطاع الشيخ بأسلوبه الفذ، وبيانه الخلاب، وعرضه البديع أن يرتفع بهذه الاستعارة من حضيض اللفظية المتهافتة إلى يفاع المعنوية المفيدة، على الرغم من أن القرائن التى تكتنفها، وتحيط بها تشدها إلى تلك اللفظية، فالشاعر لا يريد أن يذم ضيفه الطارق المنتاب عندما جعل قدمه حافرا، وإنما يريد أن يقول إنه أضحى مكدودا من وعثاء السفر، ومكابدة مشقته وشدته، فاستفرغ جهده فى حث بكره على سرعة المسير، ونخسه بقدم صلبة قوية الوقع، كأنها الحافر الصلب الشديد.

وكما استعير حافر الدابة لقدم الإنسان إذا أريد تقبيحها، استعير خف البعير لقدم الإنسان ذما لها جاء فى لسان العرب:

«الخف خف البعير، وهو مجمع فرسن البعير، والناقة تقول العرب هذا خف البعير، وهذه فرسنه... وفى حديث المغيرة غليظة الخف استعار خف البعير لقدم الإنسان مجازا»[٤].

فالاستعارة هنا أيضًا بين حيوان وإنسان، المستعار منه خف الجمل، والمستعار له قدم المرأة، وكلمات الحديث تنبىء أن هذه المرأة المتحدث عنها غليظة القدم، فاستعار لها خف البعير، يقصد من ذلك ذمها بغلظ قدمها، وخشونة ملمسها، وإذا كانت خشونة القدم، وغلظها عيبا، ولو كان فى الرجال على حد قول المتنبى يذم كافورا:

---

(١) العلابى: جمع علباء وهى عصبة صفراء فى صفحة العنق هامش (أسرار البلاغة) ٢٦.

(٢) النشز: المكان المرتفع. ينظر لسان العرب: ٦/٤٤٢٥ (نشز وقد اختلفت رواية الشيخ لهذا البيت عن الرواية التى جاءت فى لسان العرب فى بعض الكلمات، وقد أوردتها فى مطلع الحديث عن هذه الاستعارة.

(٣) أسرار البلاغة: ٢٦.

(٤) لسان العرب: ٢/١٢١٣ (خفف) والحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/٥٥.

وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى أراك ذا نعـــل إذا كنت حـــافيـــا

فإنه يكون فى المرأة أكثر عيبا، وأدعى إلى النفور منها، ومادامت هذه الاستعارة ترمى إلى عيب تلك القدم، وإلحاق النقص بها، والزراية عليها، فإنها تعتبر فى عداد الاستعارة المفيدة، وتحتسب من صميمها وخالصها، وإن كانت بين أعضاء من جنسين مختلفين، ورحم الله عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية، وإمامها، فهو الذى علمنا كيف نميز بين الاستعارتين المفيدة، وغير المفيدة.

وإذا كان حافر الدواب، وخف البعير قد استعيرا لقدم الإنسان - كما سبق - فإن الظلف، وهو للشاة، والبقرة، والظبى، قد استعير للإنسان كذلك لقصد الذم والعيب جاء فى لسان العرب:

«الظَّلف والظِّلْفُ ظفر كل ما اجتر، وهو ظلف البقرة، والشاة، والظبى، وما أشبهها، والجمع أظلاف ابن السكيت يقال رجل الإنسان، وقدمه، وحافر الفرس وخف البعير، والنعامة، وظلف البقرة، والشاة، واستعاره الأخطل فى الإنسان فقال:

إلى ملك أظلافه لم تشقق

قال ابن برى استعير للإنسان، قال عقفان بن قيس بن عاصم:

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لـــم تشقق[1]

سواء عليكم شؤمها وهجانها وإن كان فيها واضح اللون يبرق

الشؤم السود من الإبل، الهجان بيضها»[2].

والذى يهمنا فى المقام الأول هنا أن الأظلاف استعيرت للإنسان، وهى مشعرة بالذم، فتكون الاستعارة مفيدة، لملاحظة شبه بين المستعار منه، والمستعار له، وقد سبق أن أشرت إلى أن (أبا هلال العسكرى) عاب هذه الاستعارة وجعل قبحها متناهيا،

---

(١) سبق ذكر مناسبة هذا الشاهد عند الكلام على تلك الاستعارة عند الآمدى. ونلحظ أن صاحب لسان العرب نسب البيت الذى فيه الاستعارة فى صدر الكلام إلى الأخطل، وفى عجزه إلى عقفان بن قيس، وواضح أنه ينقل فى أول كلامه عن (ابن السكيت) وفى آخره عن ابن برى، ولعله لم يفطن لهذا التضارب. والبيت لعقفان بن قيس، وقد ذكرت ذلك فيما سبق، وينظر (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر: ٣٧.

(٢) لسان العرب: ٣/ ٢٧٥١، ٢٧٥٢ (ظلف).

كأنه يرى أنها متأصلة فى اللفظية عريقة فى عدم الفائدة، لا يرجى أن يتحسس لها وجه من الإفادة، أو يتلمس لها طريقا من الصحة والصواب، ولكن الشيخ عبد القاهر عندما تناولها بعد ذلك بقلمه الممتع، وبيانه المقنع، جعل منها استعارة مفيدة، وأزال عن وجهها هذا القبح، وتلك الدمامة[1].

وإذا كان (أبو هلال العسكرى) وعبد القاهر الجرجانى، قد اختلفا فى فهم استعارة واحدة فجعلها أحدهما محض القبح، واعتبرها الآخر مفيدة لا قبح فيها، فإن هذا يؤكد أن هذه الاستعارة لا تختلف فى شكلها، وصورتها خصوصا إذا كانت مقتطعة من سياقها مبتورة عن مناسبتها، ولكنها تختلف فى مضمونها وفحواها، ولذلك تتباين الأفهام فى توجيهها، وتختلف العقول فى الإحاطة بها.

ويستعار للإنسان كذلك مشفر البعير مكان شفته، إذا كانت غليظة، فتكون الاستعارة بين حيوان وإنسان، المستعار منه عضو الحيوان، والمستعار له عضو الإنسان، جاء فى لسان العرب:

« ... والمشفر للبعير كالشفة للإنسان، وقد يقال للإنسان مشافر على الاستعارة... قال الفرزدق:

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ولكن زنجيا عظيم المشافر[2]

... المشفر للبعير كالشفة للإنسان، والجحفلة للفرس[3] فاستعارة مشافر الإبل للإنسان فى بيت الفرزدق مراد بها ذمه، وتقبيح صورته، لأن الشاعر يهجو من قيل فيه هذا البيت، وبناء عليه تكون تلك الاستعارة مفيدة، لأنها قائمة على التشبيه، ومعتمدة عليه.

ومما هو بسبب من ذلك، ويحسن ذكره هنا أن عظم شفة الإنسان وغلظها،

---

(١) سبق كلام كل منهما حول الاستعارة فى البيت بشىء من البسط عند بيان موقفهما من الاستعارة غير المفيدة.

(٢) ذكر هذا البيت فى أثناء الحديث عن هذه الاستعارة عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى، وذكرت هناك أن الخطيب القزوينى أورده فى الإيضاح برفع كلمة (زنجى) خلافا لرواية الشيخ عبد القاهر له بنصبها، وخلافا لرواية لسان العرب المذكورة هنا أيضا، وبينت وجه رفع تلك الكلمة ونصبها.

(٣) لسان العرب: ٤ / ٢٢٨٨ (شفر).

يعتبر عيبا فيه، ولكن عظم مشفر البعير وطوله يعتبر صفة مدح له، وقد ظفرت بهذه الملحوظة فى لسان العرب، فقد جاء فيه أن المشفر إذا كان مسترخيا متدليا كان ذلك مما يمدح به البعير، فإذا استعير المشفر المتهدل للإنسان، فإن ذلك يكون عيبا ظاهرا من باب أولى يقول فى هذا المعنى:

« ... وتهدلت الثمار، وأغصان الشجرة أى تدلت، فهى متهدلة، وفى حديث قسّ وروضة قد تهدلت أغصانها أى تدلت واسترخت؛ لثقلها بالثمر، وفى حديث الأحنف من ثمار متهدلة، وهدل الشيء يهدله هدلا، أرسله إلى أسفل، وأرخاه، والهدل استرخاء المشفر الأسفل هدل هدلا، ومشفر هادل وأهدل، وشفة هدلاء منقلبة عن الذقن، وهدل يهدل هدلا فهو هدل طال مشفره، وبعير هدل منه، وبعير أهدل، وذلك مما يمدح به...»[1] ولم يذكر فى لسان العرب لم كان هذا مدحا للبعير، والذى يخطر على البال أن ذلك كان مدحا له؛ لأنه يساعد على تناول الطعام، وقطف أوراق الشجر خصوصا فى بلاد العرب التى يشح فيها علف الحيوان، وينذر، فإذا ما استعير هذا التهدل، وذلك التدلى لشفة الإنسان، كان عيبا مفرطا، ولذلك جاء فى لسان العرب عقب الكلام الآنف الذكر:

«وقد تهدلت شفته أى استرخت، وإنما يقال رجل أهدل، وامرأة هدلاء مستعار من البعير، وفى حديث ابن عباس أعطهم صدقتك، وإن أتاك أهدل الشفتين[2] الأهدل المسترخى الشفة العليا الغليظها، أى وإن كان الآخذ أسود حبشيا، أو زنجيا، والضمير فى أعطهم للولاة، وأولى الأمر»[3].

فإذا كانت استعارة المشافر، وهى غير متدلية، تعيب الإنسان، وتشينه فإن استعارتها له وهى متهدلة أكثر عيبا، وأشد قبحا.

ويستعار للإنسان من الحيوان أيضًا خرطومه، فيكون المستعار منه خرطوم الحيوان، والمستعار له أنف الإنسان جاء فى لسان العرب:

«الخرطوم الأنف... أبو زيد الخرطوم والخطم الأنف، وقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ

(١) لسان العرب: ٦/ ٤٦٣٥ (هدل).
(٢) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٥/ ٢٥١.
(٣) لسان العرب: ٦/ ٤٦٣٥ (هدل).

عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٦] فسره ثعلب فقال يعنى على الوجه قال ابن سيده وعندى أنه الأنف، واستعاره للإنسان؛ لأن فى الممكن أن يقبحه يوم القيامة فيجعله كخرطوم السبع»[١].

ففى معنى الخرطوم عدة آراء، ومعظم العلماء على أنه الأنف، وفى مقدمتهم ابن سيده، واختاره صاحب اللسان فبدأ به كلامه، وهذا هو الذى يتسق مع رأى أغلب العلماء.

وقد ذكر الإمام القرطبى فى تفسيره أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ثم قال: «ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحقه به عارا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم»[٢].

فإذا كانت الآية نزلت فى عيب هذا العتل الزنيم لتلحق به عارا وشنارا، فإن تلك الاستعارة تكون عريقة فى الإفادة، لا يتطرق إليها شائبة من اللفظية، أو عدم الإفادة، فهى مؤسسة على التشبيه، قائمة عليه ولعل الذكر الحكيم قد آثر السمة على الخرطوم، المراد به الأنف؛ لأن المتكبرين من العرب كانوا يشمخون بأنوفهم علوا واستكبارا، فأراد الله عز وجل أن يلحق بهذا الحلاف المهين (الوليد بن المغيرة) إهانة بالغة، وذلا مقيما فى الدنيا، فقد روى أنه خطم على أنفه بالسيف يوم بدر، فلم يزل مخطوما إلى أن مات[٣] وفى الآخرة جزاؤه عذاب أليم يصلاه فى سقر ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٧، ٢٨] ومثل ذلك يستعار الخطم، وهو الأنف، أو الأنف ومقدم الفم يستعار للإنسان، فالاستعارة من حيوان لإنسان كسابقاتها جاء فى لسان العرب:

«... والخطم من كل دابة مقدم أنفها وفمها... أبو عمرو الشيبانى الأنوف يقال لها المخاطم، واحدها مخطم بكسر الطاء، وفى حديث كعب يبعث الله من بقيع الغرقد سبعين ألفا هم خيار من ينحت عن خطمه المدر[٤] أى تنشق عن وجهه

---

(١) لسان العرب: ٢/١١٣٦ (خرطم).
(٢) تفسير القرطبى: ٦٧١٥، ٦٧١٦ ط الشعب. (٣) المرجع نفسه: ٦٧١٥.
(٤) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/٥٠.

الأرض، وأصل الخطم فى السباع مقاديم أنوفها وأفواهها فاستعارها للناس»[1] فالخطم، أو المخطم أو المخاطم مستعارة للناس من الحيوانات المشار إليها، وهذه الاستعارة وإن كان فيها استعارة عضو من الحيوان لواحد من الناس؛ أو استعارة أعضاء الحيوانات لكثير من الناس لا يراد بها إلحاق العيب، أو النقص بالمستعار له، بل المراد بها – والله أعلم – ملاحظة شبه مّا بين طرفى هذه الاستعارة، فهى استعارة مفيدة، جارية على نهج التشبيه، وسائرة على دربه، وهى فى حديث البقيع الذى أورده صاحب اللسان – واضحة الدلالة على هذا الشبه، المشترك بين طرفيها، فهؤلاء الصحابة الأخيار، ومن تبعهم بإحسان، الذين ضم بقيع الغرقد أعظمهم، يبعثون يوم القيامة، ويخرجون من أجداثهم، وقد عفرت الأرض أنوفهم، وأفواههم، ووضعت بصماتها على عرانينهم، فكستها قتامة رقيقة أكسبتها شبها من أنوف هذه الحيوانات، ومقاديم أفواهها، فهى ولا شك استعارة مفيدة، روعى فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له. وإذا كنا قد رأينا فى كثير من الاستعارات التى تقدمت أن أعضاء الحيوانات قد استعيرت للإنسان، فإن استعارة هذه الأعضاء قد توجد بين حيوان وحيوان، ومن ذلك استعارة الظلف من البقرة ونحوها للخيل جاء فى لسان العرب:

« ... واستعاره – أى الظلف – عمرو بن معد يكرب للأفراس فقال: وخيل تطاكم بأظلافها.

ويقال ظُلُوفٌ ظُلَف أى شداد، وهو توكيد لها»[2] فاستعارة الأظلاف من البقر ونحوه للخيل تشعر بشدة وقع حوافر الخيل على من تطؤهم، وتدوسهم تحت سنابكها، ويعزز ذلك المعنى، ويعضده أن الأظلاف مشققة حادة، وربما غاصت فى أجسام من تدوسهم، فهى أشد إيلاما من حافر الخيل، من أجل ذلك كانت هذه استعارة مفيدة، لملاحظة مشابهة بين المستعار منه، والمستعار له.

ومن استعارة عضو مكان عضو يناظره استعارة الجحفلة، وهى ما تقابل شفة الإنسان من الخيل والبغال والحمير لمشافر الإبل، فالمستعار منه ذوات الحافر من الدواب، والمستعار له الإبل، جاء فى لسان العرب:

---

(١) لسان العرب: ٢/١٢٠٣ (خطم). (٢) لسان العرب: ٣/٢٧٥٢ (ظلف).

« .... وجحفلة الدابة ما تتناول به العلف، وقيل الجحفلة من الخيل والحمر والبغال... بمنزلة الشفة من الإنسان، والمشفر للبعير، واستعاره بعضهم لذوات الخف قال:

جاب لها لقمان فى قلاتها(١)

ماء نقوعا لصدى هاماتها

تلهمه لهمـــا بجحفـــلاتها(٢)

وقد أورد صاحب اللسان هذه الأبيات فى موضع آخر من لسانه، وزاد عليها رابعا، وصرح بأن الجحافل استعيرت للإبل، وهى لذوات الحوافر فقال: «واستعار بعض الرجاز (الدرء) لسيلان الماء من أفواه الإبل فى أجوافها؛ لأن الماء يسيل هناك غريبا أيضاً إذ أجواف الإبل ليست من منابع الماء، ولا من مناقعه فقال:

تلهمه لهما بجحفلاتها

يسيل دُرْءا بين جانحاتها

فاستعار للإبل جحافل، وإنما هى لذوات الحوافر»(٣).

ففى هذه الأبيات استعارتان **أولاهما** استعارة الجحفلات من ذوات الحوافر لمشافر الإبل وهذه الاستعارة – فيما يبدو لى – غير مفيدة ألجأ إليها الوزن والقافية، فوضع فيها لفظ مكان لفظ فقط، دون مراعاة شبه بين المستعار منه، والمستعار له، فلا يتراءى فيها إفادة مدح، أو ذم حتى يحكم عليها بأنها مفيدة، أما إنها لا يبدو فيها ذم، فلأن كلمات الأبيات تنادى بأن الإبل أكثر التهاما للماء (تلهمه لهما) كما قال، ويتدفق مندفعا فى أجوافها كما فى البيت الأخير، واستعارة (جحفلاتها) للإبل لو كانت مفيدة، لأشعرت بأن جرعها للماء مثل شرب ذوات الحوافر، وكلمات الأبيات ما عداها تلفظه، وتعانده، فالشاعر– كما يبدو – كان يريد أن يصف الإبل بأنها تجرع الماء بكثرة، فيندفع إلى أجوافها، ولما استعصت عليه كلمة (مشافرها) وضع مكانها (جحفلاتها) فطاش سهمه، ونبت مضاربه، وقد جاء فى لسان العرب عقب هذه الأبيات فى أحد المواضع «... وأنشد ابن برى...

---

(١) فى لسان العرب: القَلْتُ: النقرة فى الجبل تمسك الماء، وكذلك كل نقرة فى أرض، أو بدن، لعله يريد أجوافها. ٥/٣٧١٥ (قلت).

(٢) لسان العرب: ١/٥٥٢ (جحف). (٣) المصدر نفسه: ٢/١٣٤٧ (درأ).

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريديها وبين الجحفل[1]

فجعل للإبل جحافل، وهى لذوات الحوافر»[2] وقد ذكر الشيخ عبد القاهر هذا البيت ضمن أمثلة الاستعارة غير المفيدة فقال:

تسمع للماء .... البيت

فجعل للإبل جحافل، وهى لذوات الحوافر»[3]، وأبقى الاستعارة فيه غير مفيدة، ولم يحاول أن يتأول لها وجها من الإفادة والصواب، كما صنع بكثير من الأمثلة التى ساقها لتلك الاستعارة فى (أسرار البلاغة) وربما اتخذ منها هذا الموقف، لأنه وجد فى صدر البيت ما يدل على أن الماء يدخل فى أجواف الإبل مندفعا يسمع خريره، والإبل أولى بذلك من ذوات الحوافر، فكانت استعارة (الجحفل) قلقة فى مكانها غير ملائمة لسياقها.

والثانية استعارة (درءا) فى البيت الأخير من الأبيات المجتمعة التى تقدم ذكرها قريبا، وهو الاندفاع «لسيلان الماء من أفواه الإبل إلى أجوافها؛ لأن الماء إنما يسيل هنالك غريبا أيضاً إذ أجواف الإبل ليست من منابع الماء، ولا من مناقعه»[4].

وهى استعارة مفيدة من أول أمرها، فلا حاجة إلى بسط القول فيها، وحسبها هذه الإشارة الدالة.

وإذا كانت الجحافل، أو الجحفلة قد استعيرت من ذوات الحوافر إلى الإبل ذوات الخف والمشافر، استعارة بين حيوان وحيوان فإن العضو المناظر لهما، وهو الشفة من الإنسان قد استعير للفرس مكان جحفلته جاء فى لسان العرب «... والشفتان من الإنسان طبقا الفم الواحدة شفة... وقد تستعار للفرس قال أبو دؤاد:

فبتنا جلوسا على مهرنا ننزع من شفتيه الصُّفارا

---

(١) لسان العرب: ١/٥٥٢ المسحل: الحمار الوحشى، وسحيله أشد نهيقه. لسان العرب: ٢/١٩٥٨ (سحل).

(٢) لسان العرب: ١/٥٥٢.

(٣) عبارة (فجعل للإبل جحافل وهى لذوات الحوافر) ليست موجودة فى أسرار البلاغة تحقيق رشيد رضا، وموجودة فيه تحقيق هـ ريتر: ٣٠.

(٤) لسان العرب: ٢/١٣٤٧ (درأ).

الصفار يبيس البهمى، وله شوك يعلق بجحافل الخيل»[1] فالشفتان فى البيت مستعارتان للمهر، وهو ولد الفرس وقد[2] أورد الشيخ عبد القاهر هذا البيت ضمن أمثلة الاستعارة غير المفيدة، فقال: « .... وقال آخر.

فبتنا جلوسا لدى مهرنا ..... البيت

فاستعمل الشفة فى الفرس، وهى موضوعة للإنسان....»[3].

وقد أبقاها فى هذا الشاهد غير مفيدة، ولم يحاول أن يتأول لها وجها من وجوه التشبيه حتى يجعلها مفيدة، أسوة بما عمل فى أخوات لها، ونظائر، وقد حاولت أن أصل إلى سر إبقائه لها غير مفيدة، فلم أوفق إلى شىء، بل على العكس من ذلك وجدت أن هذه الاستعارة توحى بمدح هذا المهر، وتومىء إلى وصفة بالرقة والرشاقة، فهو ذو جحفلة صغيرة، كأنها شفة طفل صغير، وقد أنزله صاحبه منزلة ابنه الصغير، فأولاه عنايته، وسهر على راحته، والاهتمام بأمره، كأنه وليده الأثير إلى نفسه، وعلىٰ ذلك تكون استعارة مفيدة، لوحظ فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له.

ومن استعارة عضو من حيوان لحيوان استعارة فرسن البعير لظلف الشاة، جاء فى لسان العرب:

«والفرسن بالنون للبعير كالحافر للدابة قال ابن سيده الفرسن طرف خف البعير أنثى حكاه سيبويه فى الثلاثى قال والجمع فراسن... وفى الحديث لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو فرسن شاة... وقد يستعار للشاة فيقال فرسن شاة والذى للشاة هو الظلف»[4] فقد تضمن كلام لسان العرب فى معنى الفرسن قولين **أحدهما** ما ذكره فى صدر كلامه وعجزه، ومضمونه أن الفرسن هو خف البعير كالحافر للدابة، والظلف للشاة، **والثانى** ما نقله عن ابن سيده وهو عنده لا يشمل الخف كله، بل طرفه على حدته، وهو مؤنث، لكن الخف مذكر كما جاء فى لسان العرب فى موضع آخر «تقول العرب هذا خف البعير، وهذه فرسنه»[5].

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٢٩٣ (شفه). (٢) ينظر المصدر نفسه ٦/٤٢٨٧ (مهر).

(٣) أسرار البلاغة: ٢١، ونلحظ أن البيت جاء فى (أسرار البلاغة) برواية (لدى مهرنا) بدلا من رواية (على مهرنا) التى أوردها صاحب لسان العرب، وقد ذكر محقق (أسرار البلاغة) هـ ريتر أن الشيخ نقل البيت عن جمهرة اللغة، وهو فيها غير معزو إلى قائله. هـ ريتر: ٣٠.

(٤) لسان العرب: ٥/٣٣٨١ (فرسن). (٥) لسان العرب: ٢/١٢١٣ (خفف).

والحديث النبوى الشريف الذى أورده صاحب اللسان، واستعيرت فيه فرسن البعير لظلف الشاة جعلنى أتوقف أمام هذه الاستعارة أتساءل هل تكون هذه الاستعارة مفيدة، أو غير مفيدة؟ واستبعدت أن تكون غير مفيدة؛ لأن رسول الله ﷺ أفصح العرب فكلامه منزه عن عدم الإفادة، مبرأ من الركاكة، والضحالة، وإذا كانت مفيدة فما وجه إفادتها؟

ويحسن قبل الإجابة عن هذا التساؤل أن نتعرف إلى المعنى المقصود، والغرض المنشود من هذا الحديث، وهو كما قال بعض الثقات من شراح الحديث «المبالغة فى إهداء الشيء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرسن، لأنه لم تجر العادة بإهدائه أى لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله، بل ينبغى أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلا، فهو خير من العدم، وذكر الفرسن على سبيل المبالغة»[1] فالغرض من قوله ﷺ : (ولو فرسن شاة) عدم استقلال الشيء المهدى، واحتقاره، ولو كان شيئًا يسيرا، لا يؤبه له، فهو خير من العدم، ويترجم هذا المعنى ما جاء فى الموطأ أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين، وبين يديها عنب فقالت لإنسان خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت أتعجب؟ كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة»[2].

وقد قرأت فيما لا أذكر من المراجع أن غرضها - رضى الله عنها - كان تعليم المسلمين، وإلا فإنها كانت غاية فى الكرم والعطاء.

فإذا كان ذلك هو المعنى الذى ترمى إليه هذه الاستعارة فإنه -كما يبدو لى - وأرجو ألا أكون مخطئا - كان يتحقق لو عبر بالظلف على سبيل الحقيقة وقيل - مثلا - ولو ظلف شاة بدلا من (ولو فرسن شاة) وفاء بحق المبالغة المتوخاة؛ لأن ظلف الشاة كما هو مشاهد أصغر بكثير من فرسن البعير، أو خفه، ولا يكاد يبلغ معشار حجمه.

وهنا نصل إلى الإجابة عن التساؤل السابق ما وجه إفادة تلك الاستعارة؟ فأقول إن صاحب لسان العرب قد أورد فى معنى الفرسن قولين كما قدمت.

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى: ٥ / ٢٣٤ - ٢٣٥ الطبعة الأولى ١٩٨٦م دار الريان-للتراث - القاهرة.

(٢) نقلا عن تفسير القرطبى: ٧٢٤٢.

أحدهما: أنه الخف كله.

والثانى: أنه طرف ذلك الخف، وهو عظم ضئيل لا يحفل به، ولا يعبأ بقيمته.

ويبدو لى، وهو اجتهاد منى يمكن أن أكون مخطئا فيه، أو مصيبا أن الذى يتلاءم مع المبالغة التى سيقت من أجلها هذه الاستعارة أن يحمل معنى الفرسن على طرف الخف وحده كما قال ابن سيده، وقد يؤكد هذا الفهم، ويدعمه أن العرب كما جاء فى لسان العرب تذكر الخف، وتؤنث الفرسن[1] فهما شيئان، لا شيء واحد، وبذلك تكون الاستعارة مفيدة، ومتناسقة مع المبالغة المنوطه بها، والمبتغاة منها؛ لأن الفرسن حينئذ يكون أصغر من ظلف الشاة، وأقل قيمة وقدرا منه.

ولا ضير فى أن تبنى استعارة على قول بعض اللغويين دون إجماع منهم، وقد ظهرت لى هذه الحقيقة خلال قراءتى لكتاب لسان العرب، وأقرب مثال يذكر فى هذا المقام أن الشيخ عبد القاهر نفسه جعل (الطلا) مستعارا من ولد الظبى، لابن الإنسان[2] فى قول الأعرابى (كيف الطلا وأمه؟) مع أن بعض اللغويين قد صرح بأن (الطلا) هو الصغير من كل شيء[3].

وقد يستعار عضو من الإنسان لإنسان آخر، أو بعبارة أدق من المرأة للرجل، فتستعار عجيزة المرأة، أو ردفها لعجز الرجل، ومؤخره جاء فى لسان العرب: «وعجيزة المرأة عجزها، ولا يقال للرجل إلا على التشبيه، والعجز لهما جميعا.... وعجز الرجل مؤخره، وجمعه أعجاز، ويصلح للرجل والمرأة، وأما العجيزة فعجيزه المرأة خاصة وفى حديث البراء رضى الله عنه أنه رفع عجيزته فى السجود[4] قال ابن الأثير العجيزة العجز، وهى للمرأة خاصة فاستعارها للرجل»[5].

فالعجيزة أصل فى المرأة، خاصة بها، وإذا استعملت فى الرجل، كانت استعارة مفيدة، لأنها قائمة على التشبيه، وإعطاء عجز الرجل شبها من عجيزة المرأة، وضخامتها، وقد أشار إلى ذلك لسان العرب فى الكلام المتقدم، فقال: «ولا يقال

---

(١) سبق إيراد كلامه فى مطلع الكلام حول هذه الاستعارة.

(٢) ينظر أسرار البلاغة: ٢٧، ٢٨.

(٣) ينظر لسان العرب: ٤/ ٢٧٠٠ (طلى).

(٤) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/ ١٨٦.

(٥) لسان العرب: ٣/ ٢٨١٨ (عجز).

للرجل إلا على التشبيه» ويؤخذ من ثنايا هذا الكلام أن العرب تمتدح المرأة بكبر عجيزتها؟ ولذلك قال قائلهم:

أبت الروادف والثدى لقمصها مسّ البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا(١)

فمدحها بكبر عجيزتها، وضمور خصرها على حد قول الآخر:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة تَمّت فليس من خلقها أوَدُ(٢)

فهى امرأة كاملة الخلقة، ضامرة البطن والخصر، إذا نظر إليها وهى مقبلة رئى جسمها ممشوق القد، مفتول القوام، وإذا نظر إليها وهى مدبرة بدت ممتلئة الجسم، عظيمة الردف.

وأما الرجل، فيمدحونه بخفة الجسم، ولذلك كانت استعارة العجيزة له فيها ضرب من النقص والعيب، ونوع من عدم الكمال، ولذلك قال طرفه بن العبد مفتخرا بنفسه:

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش من كرأس الحية المتوقد(٣)

يقول إن جسمه خفيف اللحم «والعرب تتمدح بخفة اللحم؛ لأن كثرته داعية إلى الكسل والثقل، وهما يمنعان من الإسراع فى دفع الملمات، وكشف المهمات»(٤).

وقد تستعار أجزاء، أو شبهها من النخلة، لما يشبهها من بعض الأشجار، فاستعيرت الكباسة من النخلة لكباسة شجرة الفوفل جاء فى لسان العرب: «والكباسة بالكسر العذق التام بشماريخه، وبسره، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب، واستعار أبو حنيفة الكبائس لشجرة الفوفل، فقال تحمل كبائس فيها الفوفل مثل التمر. غيره والكبيس ضرب من التمر، وفى الحديث أن رجلا جاء بكبائس من هذه النخل»(٥).

---

(١) ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف، للشيخ محمد عليان المرزوقى صـ٥١ مطبوع فى آخر الكشاف الجزء الرابع. دار المعرفة – بيروت.

(٢) الأود: العوج. ينظر لسان العرب: ١/١٦٨ (أود).

(٣) معلقة طرفة فى شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ٧٨.

(٤) المرجع نفسه والموضع. (٥) لسان العرب: ٥/٣٨١٢ (كبس).

فاستعارة كباسة النخلة لما يشبهها من شجرة الفوفل يشعر أن كباسة النخلة وبسرها أو رطبها أفضل فى النوع والقيمة الغذائية من مثيلتها فى شجرة الفوفل، وقد بحثت عن معلومات حول هذا الفوفل الذى لا نعرف اسمه ولا رسمه فى بلادنا- فى مبلغ علمى - فوجدت فى لسان العرب أن أبا حنيفة قال: «الفوفل ثمر نخلة، وهو صلب كأنه عود خشب، وقال مرة شجرة الفوفل نخلة مثل نخلة النارجيل[1] تحمل كبائس فيها الفوفل مثل التمر»[2].

ويبدو من كلام لسان العرب حول هذه الاستعارة أن ثمر شجرة الفوفل أقل قيمة وقدرا من ثمار النخيل المعروفة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنها تكون استعارة مفيدة؛ لأن فيها إلحاق ناقص بكامل، وإن بدت فى أول الأمر أنها نقل لفظ مكان لفظ.

* * *

(١) النارجيل: جوز الهند واحدته نارجيلة، قال أبو حنيفة أخبرنى الخبير أن شجرته مثل النخلة سواء إلا أنها لا تكون غلباء تميد بمرتقيها حتى تدنيه من الأرض لينا قال ويكون فى القنو الكريم منه ثلاثون نارجيلة. لسان العرب: ٦/٤٣٩٢ (نرجل).

(٢) لسان العرب: ٥/٣٤٨٧ (فوفل).